التربية السياسية والتربية الذاتية

كما يراهما اللورد بولدوين

كتب اللورد بولدوين رئيس الوزارة البريطانية السابق هذه الكلمة التالية :

" كثير من الناس حاولوا تربيتى ، ولكن استجابتى لهم لم تكن على الدوام موفقة . ومعظم ماحصلت عليه من تربية إنما اتفق لى بعد أن دخلت غمار الأعمال فى لحظات الفراغ الطارئة وفى أسفارى على السكك الحديدية . وبقيت سنوات وأنا أعمل طوال النهار وأقرأ فى المساء لا تفوتنى ليلة . وإنى أشعر أن هذه التربية هى التى عادت علىّ بأعظم الفوائد " .

والواقع أن التربية الحقيقية هى التربية الذاتية . لأننا أعرف الناس بمواضع الجهل فى أنفسنا ، ولذلك نستطيع أن نبحث عن العلاج باختيار المعارف التى نحتاج اليها . وكما أننا نختار الغذاء لجسم بمقدار حاجتنا وإساغتنا له فنحن نختار غذاءنا الذهنى بمقدار ما نحس من حاجة اليه . وكما أننا نسترشد من وقت لآخر برأى الطبيب فيما يكون عليه غذاء الجسم ، يجب أن نستشير أولى الرأى فيما يجب أن يكون عليه غذاء الذهن . ولكن العمدة فى النهاية هى على الذوق أو المزاج الثقافى الذى يتكون وينمو ويعين لنا الاتجاه والاختيار وفق كفاياتنا الطبيعية .

وليس شك فى أن التعليم الجامعى ينمى ويكون ويوجه . ولكن هذا التعليم ليس من حظ كل إنسان . وفى العالم المتمدن ألوف من رجال الذهن والقادة والساسة والمخترعين والمفكرين الذين لم يحصلوا على تعليم جامعى . ولكنهم مع ذلك كونوا أنفسهم أو كما يقول الإنجليز : " صنعوا أنفسهم " وفى هذا التعبير نفسه مغزى أخلاق يستحق التأمل . وهم إنما تعلموا ونبغوا لأنهم توفروا على الدرس ونظروا إلى الدنيا نظرة الجد وإلى أنفسهم نظرة الكرامة فلم يرضوا بقتل الوقت بل استغلوه حتى حصلوا من الثقافة على أكثر مما يحصل عليه عادة خريجو الجامعات .

ولكن قد يتساءل القارئ هنا : لماذا هذا المجهود أبذله فى ما تسميه التربية الذاتية وما القصد من هذه الثقافة أطلبها مدى حياتى وأعيش كادحا فى طلبها أحرم نفسى لهوها ولذتها ؟

فالجواب أن الثقافة هي أيضا لذة ولهو . بل إن الانسان ليتفنن فى طلب العلوم حتى ليحتاج إلى من ينبهه إلى الضرر الذى يعود عليه من ذلك . وهذا الانغماس برهان اللذة . ولكن هناك وجوها أخرى للتثقيف الذاتى تستحق الاعتبار ، فاننا كلما نمى أو يجب أن نعنى بتثقيف الجسم وتدريب عضلاته ، لأن فيهما صحة وجمالا . وكذلك الشأن فى تثقيف الذهن إذ هو يكسبنا كرامة وفهما للدنيا . ونحن نعنى بهندامنا وتخير الأزياء التى تليق بنا . ولكن هل منا من ينكر أن شخصيتنا تطالبنا بهندامنا الذهنى ؟ وهل منا من استطاع أن ينكر إعجابه ببعض الأذهان المدربة المثقفة واستنكاره لتلك الأذهان الأخرى التى يشعر عند الاحتكاك بها بجمودها وبرودها للجهل الذى يتخذ شكل الغباوة ؟

والرياضى الحق يطلب الرياضة للذتها . وكذلك من ينشد الثقافة لا يقصد إلى المنفعة لأنه قانع بلذته منها . ولكن كما أن الرياضة تعود على الجسم بالصحة كذلك الثقافة تعود على الذهن بالنبه ، وتجعل وجودنا حيا يقظا نواجه الدنيا فى تفهم وعلى بصيرة وتدبر .

فيجب أن نطلب الثقافة كما نطلب الصحة لا نبغى وراءهما غاية ، لأن كلا منهما غاية فى ذاتها . وما يعود علينا بعد ذلك من منافع إنما يجىء عفوا وبقدر ما نحصل من كل منهما .

ولكن كيف نثقف أنفسنا ؟

يجب أول كل شىء أن نوفر الوقت للدرس . وذلك بترك عادات الكسل واللهو السخيف ، وأن نذكر كلمة اللورد بولدوين الذى وجد تربيته الحقيقية فى ساعات السفر على السكك الحديدية عقب نهار حافل بالأعمال . ولكل منا مثل هذه الأوقات بل أكثر . فان الموظف الذى يترك عمله فى الساعة الثانية بعد الظهر يجد أكثر من ست أو سبع ساعات من الفراغ يمكنه أن يقضيها فى الدرس . وهو لو أرصد ساعة واحدة للدرس لاستطاع أن يخرج منها بمحصول ضخم بعد سنوات من المثابرة .

أما ماذا يقرأ فهذا يتوقف على بواعثه وميوله . فلعله يهتم بمتابعة التطور السياسى ، و يقرأ الجريدة اليومية . فهو إذن فى حاجة إلى بعض الكتب التاريخية والسياسية . ولعله قد فتنته بعض العلوم الحديثة فهو يبحث عن مؤلفاتها الابتدائية ثم يتدرج فيها إلى المؤلفات الضخمة

ويتعمق فى بحثها . ثم هو لا يلبث أن يجد أن فى منزله من الكتب مايصح أن يؤلف مكتبة جميلة صغيرة يعتز بها و يزيدها ويمها . فإذا وصل الى هذه الحال فإنه على بداية طريق سوف تهديه الى الرشاد والسداد . وهنا يقول اللورد بولدوين :

" أما الديمقراطية المثلى فهى شىء غاية فى السمو . ولكن المثليات لا تسير وحدها . واذا كنا نرغب فى صيانة الديمقراطية حتى تؤتى الثمرات التى نشتهى فان الوسيلة الوحيدة الصالحة لذلك إنما تنحصر فى أن يقوم جميع الأفراد بكل ما فى مستطاعهم و يعدّوا أنفسهم لصيانتها حتى تبقى عذبة صافية وأن يحفظوا المثليات التى توحيها اليهم " .

" علينا أن نذكر أن ثمن الحرية هو اليقظة الدائمة بل المعرفة الدائمة والعطف الدائم والإدراك الدائم . والواجب الذى يقع على عواتقنا هو أن نحتفظ باتزان الدولة عند النقطة التى بلغتها مع عرفاننا التام للأخطار التى تهددها سواء من ناحية وضع القيود على الحرية أو من ناحية الإغراق فيها إلى حد الاباحية " .

"أعتقد أننا جميعا نوقن أنه ليست هناك جماعة متمدنة تتجه نحو الرقى بحكم المصادفة، وأن هناك فى الحضارات مانسميه عقبة أو تقهقرا وأن مجرد وجود إحدى الحضارات ليس ضمانا لبقائها أو تقدمها ، وبكلمة أخرى أقول إننا إذا لم نكن حراسا أمناء على الشأو الذى بلغناه من الحضارة فإننا نعرضه لهذا الخطر وهو أن نرى الرأى الذى تحقق لنا بالكد العظيم يتراجع رويدا رويدا إلى الخلف " .

"يجب أن يكون التعليم قبل كل شىء فى هذا العالم حرا سام الحرية، ونزيها تام النزاهة، ويجب ألا يكون المعلم عبدا للدولة يعلم و يعظ تلاميذه بما يظن أن الحكومة ترضى عنه سواء أكانت هذه الحكومة من أحزاب اليسار أو يمين أو الوسط ، بل يجب أن تكون الغاية الأولى للمعلم بسط الحقائق كما يراها وأن تكون الغاية الأولى للتلميذ تهيئة ذهنه وتنشئته حتى إذا أتيحت له الفرصة ألفى نفسه مزودا بالارادة وقادرا بالتمرين على أن يميز التمييز الصحيح فى جميع الأمور " .

"أظن أنكم تعرفون، لا مما تعلمتموه من مدرسيكم، بل مما تعلمتموه بالسليقة التى هى ثمرة المعارف الواسعة ، كيف يجب أن ترتابوا فى الأساليب البلاغية ، و إذا كان هناك طبقة هى موضع الشبهات فى الديمقراطية فهى طبقة البلاغيين أولئك الذين يخادعون أشباه المتعلمين بمغالطات لا يستطيع هؤلاء أن يتبينوها ، وقد هلكت ديمقراطيات بهذه المغالطات ، ولا نحب أن نرى ديمقراطيتنا التى نؤمن بها والتى نعتقد أنه سيكون لها أسمى الحظوظ تحطم على

هذه الصخرة الوضيعة ، و إنى أذكرانى حين كنت فى الثامنة عشرة من عمرى أنى قرأت كلمة فرويد فى كتابه "دراسات قصيرة" كان لها الوقع العميق فى نفسى فى تلك السن ، وذلك لأنى حين كنت شابا كنت كسائر الشباب تستعبدنى اللفة المزوقة والتعبير البديع فصادفت هذه الكلمة التالية التى كان فى نفسى لها وقع الصدمة : "الخطابة هى بغى الفنون" وفى هذه الكلمة حقيقة صادقة ، ولو أتيحت لى الفرصة لجعلت هذه الكلمة عنوانا لمقال ، وعندئذ كنا نجد ما يطيب ويلذ من الشواهد التى يستشهد بها الخطابة عن صحتها فى التاريخ " .

"إنى رجل لم أحصل من التربية إلا على نصفها . فقد كنت متوسط النشاط فى المدرسة ولكنى لم أنجح فى الجامعة ومن ذلك الوقت أحاول تدارك ما فاتنى . . . وليس فى الدنيا لذة تساوى لذة الدراسة ، ولذة الحياة العظيمة . أنها ليس لها نهاية . فأدرسوا مدى حياتكم . و إنى أنا أدرس ، وسأبقى على الدرس ولو بلغت المائة ، وليس هناك ما أتطلع اليه بعد أن أترك الوزارة غير استئناف الدرس فى حماسة وهمة " .

حكم قديمة

— أشد من الموت ما يتمنى من أجله الموت .

— أكثر الناس جرأة على الأسد أكثرهم رؤية له .

— كل منا فى هذه الدنيا أحد اثنين : إما معجل يلق الردى فى نفسه ، و إما مؤجل يلق الردى فى أهله .

— استمع إلى الحكمة ولا تنظر إلى قائلها ، فكثيرا ما تأتى الحكمة على أفواه المجانين .

— بين الحذر والتردد فارق أدق من أن تبصره كل العيون ، ومع ذلك فالحذر محقق للفرص والتردد مضيع للفرص .

— لا يهاب السيد خادمه إلا لسر يخاف إفشاءه .